العائد

وقف غريب فوق سلم طائرة مصر للطيران يهم بالنزول، وكانت كل مشاعره إيجابية، حتى أنه شعر أن مطار القاهرة الدولي يفتح له ذراعيه.

الطريف أنه وجد بوابة الجوازات مقسمة إلى جزئين؛ باب للمصريين مزدحم وغير منظم وأصوات عالية تصدر منه لاتستطيع تمييزها، وباب للأجانب هادئ، وأحد العمال لايكل من تلميع أرضيته وتنظيفه !

"مكتوب علينا الزحمة برا وجوا" قالها مبتسمًا بسخرية..

أنهى إجراءته وأخذ يبحث عن أخيه حسين عند بوابة الخروج، وبعد فترة جاءه شاب ملتحٍ بلحية طويلة شعثاء يلبس الجلباب الباكستاني القصير الأبيض مع بعض نقوش على الصدر، وسروالًا من نفس اللون والنوع وأخذه بالأحضان.

- الحمد لله على سلامتك معلش اتأخرت عليك كنت بصلي العصر..

اندهش غريب! فالصوت معروف لديه جيدًا، لكن من هذا الشخص الذى تفوح من ملابسه رائحة البخور؟! وأخذ يبحث داخل الذقن الكثيف حتى

وجد بقايا من أخيه حسين الوسيم ابن النكتة معبود النساء، ولكن واضح أن كل هذه المواصفات أصبحت في عداد الماضي.

- إيه يا ابنى اللي انت عامله ده؟!

اصطنع حسين الجدية والتجهم ثم قال:

- الحمد لله "يهدي من يشاء".

- وانا اللي عمال أحكى لأصحابى عن حسين اللي مشيّب البنات، ومحطم قلوب العذارى!

- أستغفر الله العظيم...

- ياترى لسه شغال فى السياحة؟!

- "يرزق من يشاء بغير حساب".. "ومن يتق الله يجعل له مخرجا".

استمر الحوار على هذه الحال.. غريب يحاول اختراق الشرنقة التي تكونت حول شخصية أخيه ابن النكتة خفيف الظل، تارة بالفكاهة، وأخرى بالأحاديث الجدية، ولكن بلا جدوي!

فردود حسين تدور في بضعة جمل محدودة لاتخرج عن "يرزق من يشاء، جزاك الله خيرًا، أستغفر الله العظيم.."

لم يكن غريب ليمانع في استعمال هذه اللغة أبدا.. فهذه الجمل محببة إلى نفسه وتشعره بالأمان، ولكنه لا يستطيع الوصول إلى حسين أخيه الحقيقي الذي كان يعرفه.. لقد خلق حاجزًا يمنع الوصول إلى قلبه!

وصلا إلى المنزل..

- إزيك يا أبوصميدة؟! قالها غريب بفرحة وحب، ثم حضنه وقبله ولم يضع أدنى اعتبار للفوارق الاجتماعية، فقد كان أبو صميدة بواب العمارة رجلًا طيبًا، وكان غريب يحبه ويعطف عليه دائمًا قبل سفره.

- أخبارك إيه وأخبار صميدة إيه ؟...

- صميدة في إيطاليا يابيه..

- إيطاليا؟! بيعمل إيه؟!

- بيشتغل هناك

- هو اتعلم إيطالى إمتى؟!

- لا يابيه مش مهم الإيطالي.. أصله شغال في المعمار..

- بس ده الإيطاليين بيشتغلوا في فرنسا وانجلترا وإسكندنافيا!

- واحنا نسد محلهم يابيه !

- وأخبار هريدي إيه؟

- هريدي في لبنان يابيه.

- بيعمل إيه هو كمان؟!

- بيشتغل في مطعم هناك.

- طب ده اللبنانين عندهم بطالة وبيسافروا ع الخليج علشان يشتغلوا!

- واحنا برضه نسد محلهم يابيه!

- سداد يا أبوصميده والله ! طب وعيوشة بقى؟!

- عيوشة مع جوزها في السودان.

- فيه إيه يا أبو صميدة؟! على أيامنا الناس كانت بتسافر الخليج تشتغل!

- الزمن اتغير يابيه..

- تصدق يا أبوصميدة إنى مش عارف اسمك الحقيقي لحد دلوقت!

- اسمى هاني يابيه..

- أنا كده عرفت العيال بيطفشوا منك ليه.. يبقى اسمك هاني وعمال تسمي هريدي وصميدة وعيوشة!

ضحك أبو صميدة، حتى أخذ يسعل بشدة وظهرت أسنانه، لاتتعدى ثلاثًا أو أربعة.. لونها ما بين البني والأسود..

- الله يحظك يابيه أول مرة اضحك من سنتين!

المسافة إلى الشقة التي يقطنها والداه؛ ثلاثة طوابق.. قطعها في أكثر من نصف ساعة، إذ كان عليه أن يُحيي جيرانه وأصدقاء طفولته.. وما أن دفع باب الشقة الخشبي ذا الفتحة الزجاجية (شراعه) واجتاز المدخل

وشاهد والديه بالداخل؛ حتى شعر وكأن آلة الزمن الأسطورية عبرت به إلى زمن آخر هادئ وبسيط وشفاف!

جلس غريب يشاهد التلفاز مع أسرته، بعد عشاءٍ جميل، تفوقت فيه الأم على نفسها في إعداد أشهى وأحب الأطعمة إلى قلب ابنها العائد من الغربة.

كان التلفاز يعرض ندوة عن المرأة، ويقود الحوار فيها إحدى المذيعات القديمات، يحوطها ثلاث سيدات متصابيات تعدت أعمارهن الخمسين وتقترب من الستين بهدوء، شعرهن منتصب مثل القنافذ، أو كأن صاعقة كهربائية أصابتهن جميعًا، والغريب أنهن كن سعيدات بهذا الشكل، ومن وقتٍ لآخر تتأكد الواحدة منهن أن تسريحة شعرها لم تتغير، بأن تمرر أصابعها بحركة روتينية خلال خصلات شعرها، ووجوههن ملطخة بكل ألوان الطيف بقصد التجمل.

كان الحوار منصبًا حول عجرفة الرجل واستعباده للمرأة على مر العصور، وكيف أن هذا هو الزمن الملائم للتخلص من هذه العبودية، وأنه لابد أن تتحد النساء للإعلان عن تحرر المرأة إلى الأبد من هذا المجتمع الذكوري المستبد!

غريب:

- لا إله إلا الله.. إيه الهبل ده؟! كيف يستعبد الرجل المرأة وهي منه وهو منها؟! هل يُعقل أن يضطهد الرجل أمه أو ابنته أو زوجته أو أخته؟!

الأم: الراجل والست مكملين لبعض طبعًا.

- والله إن هـذه الحـوارات والنـدوات ظاهرهـا العسـل وباطنهـا السموم!

القارب ذو القائدين غارق لا محالة، حتى يتنازل أحدهما للآخر، وهذا لا يعنـي انتقاصًـا مـن كرامـة أو حريـة، بـل صـون الكرامـة والحفـاظ علـى الحياء.

ثم لماذا ينبعث الشر والكراهية من عيون وأفواه هؤلاء النسوة؟! ألا توجد نساء أخريات أكثر سماحة وقدرة على تقبل الرجل كشريك في هذا الكون؟!

كان حسين يجلس بعيدًا عن الأسرة، وهو يتصفح إحدى كتب التفسير معطيًـا جانبـه لجهـاز التليفزيـون، ربمـا ليثبـت لذاتـه وللعائلـة أنـه غيـر مكترث بهذا الجهاز المنحل، وقال دون أن يوجه كلامـه أو نظره لأحد، وكأنه يفكر بصوتٍ عالٍ:

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ" صدق الله العظيم.

ذهب غريب إلى الشرفة، حيث كان المنزل يطل علـى شـارع عريض، ورغم ذلك تداخلت السيارات بسبب رجوع البعض عكسيًا مع تواجد بعض مركبـات التـوك تـوك السرطانية، يقودهـا صـبيه لاتتعدى أعمـارهم الإثنـى عشر أو الثالثـة عشر، وهنـاك أيضًـا مايسمى بعربـات الكارو، التي تتحدى الزمن والتاريخ.

تنهد غريب قائلا: أستغفر الله العظيم.

بقلم / ندي سمير